﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلًا ١٦﴾

[المُزّمّل: 15 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّنبيهُ على سببِ العذابِ لاجتنابِهِ

لمّا ذكرَ تعالى العذابَ، ووقتَهُ، وقدَّمَهما؛ ليكونَ السّامعُ أقبلَ لِما يُطلَبُ منهُ؛ أتبعَهما السَّببَ فيهِ، مشيرًا إلى ما بهِ إصلاحُ أمرِ الآخرةِ الَّتي فيها المعادُ، وإليها المُنْتَهَى والمآبُ[1]؛ لكونِ تقريرِ شأنِ العذابِ مَسوقًا مَساقَ التَّسْليةِ والتَّخفيفِ عن رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ المُكذَّبِ المأذيِّ بأقوالهم، فقدَّمَه القرآنُ على ما بعدَه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰهِدًا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعِلمِ والإعلامِ[2]، فالشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ معَ المشاهدةِ؛ إمّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ[3]، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلْمٍ حصَلَ بمشاهدةِ بصيرةٍ، أو بصَرٍ[4]، والمرادُ بكونِ النَّبيِّ شاهدًا عليهم: أنَّهُ شاهدٌ عليهم يومَ القيامةِ بكفرِهم وتكذيبِهم، وأنَّهُ مبيِّنٌ للحقِّ في الدُّنيا، ومبيِّنٌ لبطلانِ ما هم عليهِ مِنَ الكفرِ[5].

2) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ[6]، وذلكَ يكونُ تارةً بالتَّناولِ، وتارةً يكونُ بالقَهْرِ، كما في قولك: أخذَتْهُ الحُمَّى، وأخَذَهُ اللّه تعالَى أهْلَكَهُ، وأخَذَهُ بِذَنْبِهِ: عاقَبَهُ عَلَيْهِ، وآخَذَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الأصفهاني، المفردات: (شهد).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (شهد).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 691.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).

بِالمَدِّ مُؤاخَذَةً كَذَلِكَ، والأَمْرُ مِنهُ آخِذْ[1]، ويُعبَّرُ عن الأسيرِ بالأخيذِ، والمأخوذِ[2]، والمرادُ بالأخذِ هنا: الإهلاكُ الشَّديدُ.

3) ﴿وَبِيلًا﴾: (وبل) أصلٌ يدلُّ على شدَّةٍ في شيءٍ، وتجَمُّعٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الوابلُ، وهو المطَرُ الثَّقيلُ[4]، والوَبالُ بالفَتْحِ مِن وبُلَ المَرْتَعُ بالضَّمِّ وبالًا ووَبالَةً بِمَعْنَى وخُمَ، سَواءٌ كانَ المَرْعَى رَطْبًا أم يابِسًا، ولَمّا كانَ عاقِبَةُ المَرْعَى الوَخيمِ إلَى شَرٍّ؛ قيلَ في سوءِ العاقِبَةِ: وبالٌ، والعَمَلُ السَّيِّئُ وبالٌ عَلَى صاحِبِهِ[5]، والوَبالُ: الأمرُ الَّذي يُخافُ ضررُهُ، ويقالُ: طعامٌ وبيلٌ، أي: يُخافُ وبالُهُ[6]، والمرادُ بالوبيلِ هنا: الثَّقيلُ الشَّديدُ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّهديدُ بعاقبةِ مكذِّبي الرُّسلِ في الأممِ السّالفةِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ: إنّا أرسَلْنا إليكم أيُّها النّاسُ أو يا كفّارَ مكَّةَ - رسولًا شاهدًا على أعمالِكم يومَ القيامةِ، مِثلَ إرسالِنا موسى عليه السلام إلى فرعونَ، فعصَى فرعونُ الرَّسولَ الَّذي أرسلناهُ إليهِ، فأخذناهُ أخذًا شديدًا، فأهلكناهُ ومَنْ معَهُ جميعًا، فاحذروا أنْ تُكذِّبوا هذا الرَّسولَ، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَ فرعونَ وقومَهُ[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ﴾ عمّا قبلَهُ:

وعيدُ المشركينَ المكذِّبينَ للنَّبيِّ ﷺ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للتَّخلُّصِ إلى وعيدِ المشركينَ بعدَ أمرِ النَّبيِّ ﷺ بالصَّبرِ على ما يقولونَ، والهجرِ هجرًا جميلًا[9].

(1) الفيومي، المصباح المنير: (أخذ).
(2) الأصفهاني، المفردات: (أخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وبل).
(4) الخليل، العين: (وبل).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (وبل).
(6) الأصفهاني، المفردات: (وبل).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 48.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 693، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 117.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 272.

سرُّ التوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

سياقُ الشَّهادةِ على صنيعِهم يقتضي الاعتدادَ بتكذيبِهم

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ المخاطَبينَ مُنكِرونَ أنَّ اللهَ أرسلَ إليهم رسولًا[1]، فراعَى القرآنُ تكذيبَهُم بالتَّوكيدِ؛ لأنَّ السِّياقَ لبيانِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهِم، وهم في الدُّنيا.

علَّة التَّعبير بضمير الجمع:

لا عُـذْرَ لِمَن أنكَر البرهان العظيم

أُسنِدَ الإرسالُ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لتعظيمِ شأنِ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وشأنِ إرسالِ موسى عليه السلام؛ إذ الإرسالُ مِن قِبَلِ ذي العظمةِ ﷻ[2]، والمقصودُ مِن ذلك بيان كمال ظهور الحُجَّة الَّتي قامتْ على صِدْقِ مَجيئِهم ورِسالتِهم، فهو إرسالٌ مَصحوبٌ ببرهانٍ عظيم.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

التَّحريكُ لاتِّباعِ الرَّسولِ محمّد ﷺ قبلَ فواتِ الأوان

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لأنَّ إرسالَ النَّبيِّ وموسى – عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ – قد تحقَّقَ، ومضَى، أمَّا إرسالُ موسى؛ فظاهرٌ، وهو مقيس عليه، وأمَّا إرسالُ نبيِّنا محمّد ﷺ؛ فلأنَّ هذهِ الآياتِ نزلَتْ، وقد أوحيَ إليه، فجملةُ آياتٍ في أُنُفِ سورة: (العلق) قد نزلت قبل هذه السُّورة: (المزَّمِّل)، وبذلك طابقَ المقيسُ المقيسَ عليه.

معنى: (إلى) ودلالة التَّعبير بها في الآية:

المُرسَلُ إليهِ غايةُ المُرسَلِ

كلمةُ (إلى) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ في الموضعينِ؛ لانتهاءِ الغايةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21 - 23 - 25.

المكانيَّةِ، فتفيدُ أنَّ المخاطَبينَ غايةُ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ فرعونَ غايةُ إرسالِ موسى عليه السلام وهذا يشيرُ إلى أنَّ صلاح الأمم وإصلاحها، وسلامتها ونجاتها مِن آفات الدَّارَيْنِ هو هدفُ الأنبياء والرُّسُل، فلِمَ لم يستجيبوا لهم؟.

غرضُ تقديمِ ﴿إِلَيْكُمْ﴾:

تقديمُ المخاطبينَ تقريبٌ لهم، وتودُّدٌ إليهم؛ ليَسمعوا، ويُطيعوا

قُدِّمَ قولُه: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ على قوله: ﴿رَسُولًا﴾، في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم، ووجه ذلك أنَّ الإرسالَ مِن أجلِهم هم، فهُم المقصودونَ بالرِّسالة، وهُم الكائنون في ظلمات الكفر والشِّرك والجهل والتَّخلُّف، وهُم الَّذين يسعى الرُّسُلُ؛ لإخراجهم مِن تلك الظُّلمات إلى نور الإيمان والعلم والعمل النَّافع، والتَّشويقِ للمؤخَّر؛ لبيان فضله وعظمته، ومِثْلُ ما سبَق يُقال في تقديم قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على قوله: ﴿رَسُولًا﴾ في بيان المشبَّه به، ولأنَّ في المُؤخَّر ﴿رَسُولًا﴾ وصفتِهِ وما تعلَّقَ بها نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ.

سِرُّ تنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾:

تعيُّنُ المقصودِ يُغني عن التَّعريف

تنكيرُ قولِه: ﴿رَسُولًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّهم يعلمونَ المقصودَ في هذا الكلام، وهو نبيُّنا ﷺ، ولأنَّ مناطَ التَّهديدِ والتَّنظيرِ ليسَ شخصَ الرَّسولِ ﷺ، بل هو صفةُ الإرسالِ[1]، ولا تخفى إرادةُ التعظيم والتفخيمِ من شأنِ الرَّسولِ ﷺ.

بلاغةُ وصفِ الرَّسولِ ﷺ بكونِهِ ﴿شَٰهِدًا﴾:

وُصِفَ الرَّسولُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ بكونِهِ شاهدًا عليهم؛ لبيانِ أنَّ عصيانَهم لهُ مع اتِّصافِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.

بهذا الوصفِ أفظعُ وأدخلُ في الذَّمِّ[1]، وسِرُّ مجيء هذا الوصفِ أنَّ آيتَه جاءَتْ في سياقِ بيانِ جزاءِ المُكذِّبينَ يومَ القيامة، وشيء مِن أهوالِ ذلك اليوم، الَّتي تفخِّم الجزاء، وتُهوِّلُه؛ فقبْلَها قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، وبعدها قولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، وكونُ الَّذي عصَوْهُ شاهدًا عليهم مِمَّا يُؤذيهم، ويفضحُهم في ذلك اليوم، فهو جارٍ على نسقِ التَّهويل والتَّفخيم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: 75].

عصيانُ الرَّسولِ الشّاهدِ أدخلُ في الذَّمِّ، وأدلُّ على هولِ يومِ الجزاءِ

معنى (على) ودلالة التَّعبير بها في ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تعديةُ الشّاهدِ بـ (على) في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ لتضمُّنِهِ معنى الرَّقيبِ، فيشملُ الشَّهادةَ لهم وعليهم[2]، ولو آمنوا؛ لكانتِ الشَّهادةُ لهم[3]، وفي (على) - الَّتي هي للاستعلاء الحسّيِّ في الأصل، واستعلاؤُها هنا مجازيٌّ - إشارةٌ إلى أنَّ أثرَ شهادته ﷺ عليهم تتعلَّقُ بكلِّيَّتِهم، فمصيرُهُم في ذلك اليوم نتيجةُ تلك الشَّهادةِ؛ أفلا يؤمنون به، وهم لا يزالون في الدُّنْيا؟.

النَّبيُّ ﷺ رقيبٌ على أعمالِ المُرْسَلِ إليهم

دلالةُ الكافِ في ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾:

الكافُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: للتَّشبيهِ، وهي في محلِّ نصبٍ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنّا أرسَلْنا إليكم رسولًا إرسالًا كائنًا، كما أرسَلْنا إلى فرعونَ رسولًا[4]، والمقصودُ مِن هذا التَّشبيهِ تهديدُهم بالأخذِ الوبيلِ[5].

إرسالُ النَّبيِّ ﷺ مِثلُ إرسالِ موسى عليه السلام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 15/ 120.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 389.

سرُّ تنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾:

الاعتبارُ في التَّشبيهِ بالإرسالِ لا بشخصِ المُرْسَلِ

نُكِّرَ قولُه: ﴿رَسُولًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾، ولم يُعيَّنْ؛ لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّقْ بهِ؛ لعدمِ دخولِهِ في التَّشبيهِ[1]؛ لأنَّ الاعتبارَ بالإرسالِ، لا بشخصِ المُرْسَلِ[2]، أو لأنَّهُ معلومٌ غنيٌّ عن البيانِ[3]، وللتَّنْبيهِ اللَّطيفِ على أنَّه ليس مِن قومِ فرعونَ؛ فلا مانعَ لهُ منهُ مِن حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع؛ ليُعلَمَ أنَّه مَن كانَتْ له قبيلةٌ تُحامي عنهُ أوْلى بالنُّصْرةِ[4].

سرُّ اختصاصِ قصَّةِ موسى وفرعونَ بالذِّكْرِ:

معاملةُ الكفّارِ للأنبياءِ مُتشابهةٌ

خُصَّ موسى وفرعونُ بالذِّكرِ دونَ سائرِ الأممِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لأنَّ خبرَهما كانَ منتشرًا بينَ أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهم كانوا جيرانَ اليهودِ[5]، ولأنَّ أهلَ مكَّةَ ازدرَوا محمَّدًا ﷺ، واستخفّوا بهِ؛ لأنَّهُ وُلِدَ فيهم، كما أنَّ فرعونَ ازدرَى موسى؛ لأنَّهُ ربّاهُ، ووُلِدَ فيما بينَهم[6]، فقد كان الدِّين ضعيفًا، وأهلُه في غايةِ القلَّةِ والذِّلَّةِ؛ إذ سورة: (المزّمّل) مِن أوَّل ما نزَل مِن القرآن، وكان فرعونُ أعْتَى النَّاس في زمانِه، وأجْبرَهُم، وأشدَّهُم خداعًا، وأمكرَهم، وكان بنو إسرائيلَ في غاية الذُّلِّ لهُ، والطَّواعيةِ لأمرِه، فكانوا محلَّ عِبْرة لمَن آلَ به أمرُه إلى أنْ كان في زمانٍ صارَ فيه الدِّين غريبًا، كغربته في أوّل زمان إرسال نبيِّنا ﷺ، وكان فرعونُ محلَّ عِبْرة لقريش والعرب، مع أنَّه يزيد عليهم بالمُلْك وكثرةِ الجنودِ والأموالِ[7].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 52.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 39/ 273.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 226، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 213.

(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 558.

(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 691، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 317، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.

(7) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 213.

معنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَعَصَىٰ﴾:

(الفاءُ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، فإنَّ الإرسالَ وإنْ كانَ سببًا للإطاعةِ لكنَّهم جعلوهُ سببًا للعصيانِ[1]، فقد رتَّبوا شيئًا على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وهذا عجيبٌ وغريبٌ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الغرضَ مِن هذا الخبرِ هو التَّهديدُ بأنْ يحلَّ بالمخاطَبينَ لمّا عصَوا الرَّسولَ ﷺ مِثلُ ما حلَّ بفرعونَ[2].

مَـنْ وضَـعَ العصيانَ في مَوضِعِ الطّاعةِ؛ استحقَّ العقابَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿فَعَصَىٰ﴾ و﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عصيانَ فرعونَ وأخذَهُ أمرانِ قد تحقَّقا، ومضَيا؛ وذلكَ أنسبُ بمقامِ التَّهويلِ والتَّخويفِ، ولا داعيَ لاستحضارِ صورتِهما بصيغة المضارعِ؛ فأمَّا المعصيةُ؛ فلئلَّا يكونَ في ذلك نوعُ تعظيمٍ لها، ففي مُضيِّها تحقيرُها، وأمَّا العقابُ بالأخْذِ؛ فلأنَّ أمَّة الرَّسولِ محمّد ﷺ لا تُعذَّب بعذاب الاستئصالِ؛ كرامةً لرسولِها.

فرعونُ أثرٌ بعدَ عينٍ

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فعصاهُ)، إلّا أنَّ النَّظمَ أظهرَ فرعونَ والرَّسولَ معًا في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للنِّداءِ على فرعونَ بفظاعةِ عصيانِهِ الرَّسولَ[3]، وأنَّ ذلكَ الأخذَ لكونِهِ عصيانَ الرَّسولِ، لا لكونِهِ عصيانَ موسى ﷺ[4].

عصيانُ الرَّسولِ فظيعٌ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾:

تعريفُ الرَّسولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للعهدِ الذِّكْريِّ؛ لتقدُّمِ ذكرِ الرَّسولِ[5]، والعربُ إذا قدَّمتِ اسمًا، ثمَّ حكَتْ

الرَّسولُ المعصيُّ هـو الـرَّسـولُ المذكورُ سابقًا

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 641.

عنهُ ثانيًا؛ أتَوا بهِ مُعرَّفًا بـ(أل)، أو أتَوا بضميرِهِ؛ لئلّا يلتبسَ بغيرِهِ، نحوُ: رأيتُ رجلًا، فأكرمتُ الرَّجلَ، أو فأكرمتُهُ، ولو قلتَ: (فأكرمتُ رجلًا)؛ لتوُهِّمَ أنَّهُ غيرُ الأوَّلِ[1].

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾:

العصيانُ سببُ الهلاكِ

(الفاءُ) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ الأخذِ الوبيلِ - وهو الإهلاكُ الشَّديدُ - عن عصيانِ الرَّسولِ[2]، وهذا الأخذُ واقعٌ في مقابلةِ عُتوِّهم وعصيانِهم واستكبارِهم، ففي العطف بها تهويلٌ وتفخيمٌ وتفظيعٌ لعصيان الرَّسول، وتدلُّ أيضًا على حُصولِ الأخْذ والإهلاك على سَبيلِ المُسارَعة بدونِ فاصِلٍ أوْ مُهلةٍ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالأخذِ:

اللَّفظُ المستعارُ هو المُصوِّرُ حقيقةَ عقابِ فرعونَ

الأخذُ في قولِهِ جلَّ من قائلٍ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ مُستعمَلٌ في الإهلاكِ مجازًا؛ لأنَّهُ لمّا أزالَهم منَ الحياةِ أشبهَ فِعْلُهُ أخْذَ الآخذِ شيئًا منْ موضعِهِ، وجعلِهِ عندَهُ[3]؛ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والأخْذُ هو الأبلغُ في تصويرِ حقيقةِ عقابِهم في الدُّنْيا، من عذابِ الاستئصالِ بالإغراقِ في اليَمِّ.

علَّةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجَمْعِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾:

العاقلُ لا يُعرِّضُ نفسَهُ لعقابِ العظيمِ

أُسنِدَ الأخذُ إلى ضميرِ الجمعِ المرادِ به هنا العظمةُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ لتعظيمِهِ، أي: فأخذناهُ بما لَنا منَ العظمةِ[4]، وفي ذلكَ مزيدُ تخويفٍ وتهديدٍ؛ إذ العاقلُ لا يُعرِّضُ نفسَهُ لعقابِ العظيمِ، وفيه بيانُ عظَمِ معصيةِ فرعونَ الَّتي استوجبت أخْذَه، وغايةِ حقارةِ فرعون، وهوانِه على اللّٰه تعالى.

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 526.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25.

سِرُّ تنكيرِ ﴿أَخْذًا﴾:

أَخْذُ فرعونَ أَخْذٌ فظيعٌ

تنكيرُ لفظ: ﴿أَخْذًا﴾ في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ للتَّعظيم، أي: أخذًا هائلًا فظيعًا؛ فيكونُ الأخذُ قد فُخِّمَ بصيغتِهِ وصفتِهِ، وهذا إبلاغٌ في ترهيبِ قريشٍ والعربِ، وتنفيرِهم مِن تكذيبِ رسول الله، وإيذائه، بقي أنَّ ﴿أَخْذًا﴾ مفعولٌ مُطلقٌ أُريدَ به التوكيدُ للفعلِ؛ تأكيدًا لا مَطمَع فيه للإنكارِ.

علَّة التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَبِيلًا﴾:

إهلاكُ المكذِّبينَ شديدٌ رديءُ العاقبةِ

وُصِفَ الأخذُ بالوبيلِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ ثقيلٌ غليظٌ شديدٌ مُتعبٌ رَديءُ العاقبةِ، وخيمٌ لا يُستمرَأُ لثقلِه، والوَبيلُ: العَصا الضَّخمة[1]، وهذا الوصفُ السَّخيُّ العامرُ بالمعاني يُلخِّصُ أوصافَ عقاب فرعونَ ومَن معَه، ويستحضرُها بإيجازٍ شديدٍ؛ تناسُبًا معَ سياقِ الإبلاغِ في التَّرهيبِ، وتَهويل العذابِ وتفخيمِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"